

الكاتب الأول

عين شمس



« الشعرة من الحرارة »

بوشين

الباب الأول

الأرض الطيبة

عين شمس ، أو الريف الفرنسى فى مشارف القاهرة ، بلدة طيبة ، وعيش رغيد . كلما ألقيت البصر أمتعتك جنة الريف المصرى السعيد . أين منها ، رفائيل ، ومنقاشه وسحر بنائه ، رفرف خضر ، وطرائق قد ، لها فى التاريخ شأن أى شأن .

فواحة عين شمس أو هليوبوليس ، فى تعبير أجدادنا الفراعنة ، هى من قديم العصور مهبط القوافل القادمة من الشرق ومن الشمال ، تدق أبواب العاصمة فتدخج قليلا ، ثم تغد المسير إليها فى رياض معشبة وحدائق غلب وحياض رواء . تتراقص فى صفاء الأفق ، كأنها نظم الدر أو حبات العقد يزدان بها الجيد المديد للقاهرة . وتختال فيها قصور سروات مصر وأثرياتها من قصر القبة أو مقر الملك ، إلى قصور يوسف كال ونعمت مختار وشيوة كار . هنالك تضرب المسلة الشهيرة بروقها فى كبد السماء . تروى آثار مجد الآباء وتنهى الأبناء عن أخواتها القائمات فى ميادين باريس ، ونيويورك ، ولندره ، بين سرقات ، أو عطايا ولالة ، ضنوا بها أن تقوم فى ساحات حواضرنا . وعلى مبعدة أمتار من المسلة تكاد تستمع نفسك إلى خطرات

أثر آخر هو « شجرة العذراء » يحج إليها الحجاج من كل فج عميق ،
ليربحوا حيث أراحت « العائلة المقدسة » ويتناجوا مع الماضى مناجاة
الإيمان والاطمئنان .

وإلى جنبها بقايا المعابد القديمة التى خلفها «سنوسر الأول» و«أمنحتب
الأول» تنظر إلينا من أربعين قرناً ، وآثار « تل الحصن » حيث ينتهى
البصر بقناة الاسماعيليه ، أو طريق المعاهدة ، ينساب كالحة الرقطاء بين
القاهرة وأعمال منطقة القنال .

فيا له من مكان عجيب ! اجتمعت عنده معاهد تاريخنا الغابر ومتاعب
جيلنا الحاضر من أجل القناة ومن أجل المعاهدة ...

ويا لها من محلة مباركة تهى فكر صاحبها للمسئوليات السياسية بحكم
ميلاده وبحكم مقامه ... !

فى خواتيم القرن الماضى لم تكن الألوان المونقة ولا البيوت
الفارحة قد زينت وجه هذه الزبرجدة الخضراء . فلم يكن فيها إلا
منازل قليلة ، يقيم فى أحدها الأستاذ الإمام « محمد عبده » ، وإلى جواره
المستمر « بلانت » المستشرق الإنجليزى الذى أرخ للثورة العربية
فأنصفها ، ثم مسكن خاص « للخديو عباس » يقيم فيه مع زوج أجنبية ،
ثم منزل « أحمد بك عصمت » ... رحل إليه بعد أن اشترى ضيعة فيها
قصران للرحوم « أحمد صادق باشا » صهر المغفور له « عبد الحالىق
ثروت باشا »

وتوثقت عرى المودة بين « الأستاذ الإمام » وجاره كما توثقت بين
الجار وبين ثروت باشا أواصر الصداقة والألفة حتى قضوا .

كان أحمد بك عصمت مهندساً فرنسى الثقافة عصبي المزاج ، انطوائى
النزعات ، هو الابن الوحيد لأبوين ورث عنهما مالا وجاها . فكانت

حياته حياة نظرائه من أعيان البلاد وأماثلها ، لولا ما تميزت به من تعليمه العالى ومشروعاته الخاصة وهواياته العلمية والعملية ولعب « البلياردو » ومخترعاته ... فهو يخترع تصميم قاطرة يبعث به إلى إنجلترا فيعود إليه دون أن تقبله دور الاختراع ، فيبقى القطار حبساً فى غرفات داره . لكنه يخترع جهازاً للتقطير ، غير كبير ، يسبك له فى باريس . ويبقى يقطر العطر ، حتى يقضى نحبه ، ويخترع آلة جبارة للطحين وللرى تخرج الماء من أعماق الآبار ، وتطحن الحب لساكنى عين شمس ، وتبقى الآلات الضخمة سنوات تخدم الناس وتدر المال وتذكر الأولاد الصغار بطراز المخترع الذى قضى .

وانتقلت أفكار عصمت بك إلى بنى سويف فأقام إلى جوار دار الحكومة ما أسماه الناس « خان الخليلي » فى بنى سويف ... عمارة كبيرة المساحة من دورين ، وصفين متوازيين ، يفصل بينهما فراغ ضيق يكشف عشرات الدكاكين للسماء ، فكانت سوقاً فذة بطرازها ، وبقطانها ... من مصورين أوريين يرسمون بيع الصعيد ومعابده ، إلى تجار ذهب أو مصانع لبن ! إلى عطارين وخياطين وغيرهم من المتنافرين والمتشاكين ... وبشترى الرمال الصفراء من الصحراء ، بمئات الجنيهات للفدان ، ويطلق مشاريع الفاكة فى هذه الواحة أول من يطلق ، ويستحضر إليها نبات المانجو من الهند ، ويستورد أشجار التوت ، من قبرص فتتمو حتى تسد طريق سكة الحديد ، ويختصم فيها ومصلحة سكة الحديد ووزارة الزراعة فيبعثر آلاف الجنيهات فى هذه النزاعات لبقى لإرادته سلطانها ، ولمصر هذا النوع العظيم ذا الثمار الكبيرة الذى تدين به له .

وينتقل من زراعة الفاكة التى كان ينافس فيها وزارة الزراعة إلى تربية الحيوان ، فتزدحم حدائقه بعجائب الحيوان ، من حديقة

بتامها للنعام ، إلى أقفاص للطيور ، وللإيمو ، وللنسانيس ، وغيرها
عما آل بعد وفاته إلى حديقة الحيوان بالجيزة .

أقبل المهندس الشاب على الطبيعة أيما إقبال ، كما أحب العلم والعلماء
وحي حياته قسمة بين رفقة الشيخ محمد عبده ورواد داره من العلماء
وزراعاته المستحدثة وخدمة خاله وصحبه .

كان خاله الفريق — (المشير) — د عبد القادر حلي ، حاكم
السودان العظيم وناظر الحربية ، يخلصه بخالصة من موداته حتى ليوصى
إليه بالوصاية بعد وفاته على بنيه ، ويرحب به بعلا الكبرى بناته ،
وأبرزهن في العلوم واللغات وأوفرهن حظاً من الجمال . ويقضى الأشهر
الطوال من كل عام بعين شمس يلتمس العافية في أعطاف الهواء الجاف ،
ويسرح الطرف في أعمال ابن أخته من زراعة البساتين وإعداد أرض
الصحراء لتكون أرض بناء ، تزيد ثراء صاحبها أضعافاً بعد سنين .

وكان د عبد القادر حلي باشا ، مفخرة وادي النيل جميعاً في آخره
القرن الماضي وفي فاتحة هذا القرن ، فهو في عقيدة الشعب وفي التاريخ
بطل السودان ، القائد المصري الذي استقال من الوزارة لامتناعها عن
استرجاعه . وكان على ثرائه العريض وآلاف الأفدنة التي يملكها
ومكانه في مجلس الشورى ، معقد أمل الوطنيين في البلاد بعد الاحتلال

ذلك بأنه كان البطل العسكري الوحيد من أبطالنا الذي لم يشرد أو
يجرد ، إذ شامت عناية السماء أن يكون مستغرقاً في حروبه الخالدة بمصر
الجنوبية بالسودان ، في حين كان «عراي» يحارب في مصر الشمالية بالغرب
وباتل الكبير ، فلما أسر «عراي» سكت صوت مصر في الشمال ولم
يسكت صوتها في الجنوب . ولم يأخذ الخديو على بطل الجنوب اشتراكه
في عمل ضده ، فظل مطلقاً تسراج ، يرمقه المواطنون بالإجلال ،

ويتناقلون ذكرياته في السودان، وابتهاال المهدي والدرأو يش لله ليعصمهم منه بعد أن ولوا الأءبار في كل لقاء ، فكانوا يصلون ويدعون عقب كل صلاة بقولهم : « يارب يا قادر اكفنا شر عبد القادر » .

لم تكء تصطفيه وزارة سامى البارودى لقيادة السودان ، حتى رحل في مايو سنة ١٨٨٢ ، وأنقذ الجزيرة من الثوار ، وقاد الجيوش المصرية في معارك خاطفة مظفرة في « مشرع الداعى » ، و « معتوق » . ولم يكء يرفع الأعلام المصرية المظفرة حتى جاءته أنباء الشمال عما سى معركة التل الكبير في سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، فلم يتراجع بل تابع معاركه في يناير وفبراير سنة ١٨٨٣ .

ولما منع الانجليز أن ترسل اليه الذخيرة ، وأن تدفع رواتب جنده لينهزم ، واصل زحفه تحت مسئوليته لحساب الوطن ، لا لحساب الحكومة ، وكان لا يدبر الخطط لحسب ، بل كان في قلب الجيش وعلى رأسه ، ورحى الحرب تدور ، فأصيب في جنبه في معركة « مشرع الداعى » وكسرت ساعته ، لكنه واصل الحرب . فأبى الإنجليز إلا أن يعينوا بدلا منه أحد مرؤوسيه ، بل ألغوا نظارة السودان التى كانت له ، وأعيد من الخرطوم في أبريل سنة ١٨٨٣ . ولما عينه الحديو في وزارة « نوبار » ناظراً للحربية ، عقب إلغاء نظارة السودان ، لم يلبث إلا يسيراً حتى استقال وحده من الوزارة في سنة ١٨٨٧ لعدم استرجاع السودان

في ظلال هذه الذكريات كانت الأسرة تعيش ، وفي جوارها المستر « بلانت » ، والشيخ « محمد عبده » — التليذ الأكبر « لجمال الدين الأفغانى » ، والأستاذ الأكبر « لسعد زغلول » ، والمحرض الأول على التطوع للدفاع عن الوطن ضد جيوش الاحتلال في صحيفة « الوقائع الرسمية » التى يرأس تحريرها ، فلما حوكم مع زعماء الثورة العراقية نى ثلاث سنين ،

أقضاها ، وأربعاً بعدها ، بين دمشق ، و باريس ، حيث أنشأ مع
أستاذه جمال الدين صحيفة العروة الوثقى ، للدفاع عن الإسلام ، فلما عاد
إلى الوطن تقلد منصب الإفتاء ، وتزعم مدرسة الإحياء الاسلامي ،
لتربط التقدم الاسلامي بأسباب الحضارة المعاصرة .

فكانت حياة عصمت بك في ذكريات أولاء ، ورفقة هؤلاء ،
وفي الواقع ، حياة عامة على رغم صاحبها .

ولأنك لو اجد بداره إلى جوار قاعة البلياردو ، الكبيرة ، والقاعة
التي كانت تحوى مائة وعشرين عصاً مختلفات ، من ذهب أو خشب أو
جلد أو عاج إلى بيض نعام وجلود سباع ونمور وأنياب أفيال ،
تلك المكتبة التي خلفها في ثلاث قاعات فساح ملئت مصاحف تركية
وعربية ، بين حديث وعتيق ، ومخطوط ومطبوع ، كان يقرأ فيها
العلماء الذين يغشون الدار ويتدارسون مع صاحبها أصول الدين ،
وكتبا علمية هندسية أو تاريخية أو أدبية أو شرعية بالفرنسية
والعربية ، بلغت نحو ألفي كتاب بينها بعض الكتب التاريخية مجلدة
بالمجلد الفاخر لما تضمنته من شروح لفتوح خاله في السودان ،
(كحقائق الأخبار عن دول البحار لاسماعيل مرهوك باشا) و (السودان
بين يدي غوردون وكتشنر لبراهيم فوزى باشا) و (السودان لنجوم
شقيير) و (يوميات غوردون) و (السيف والنار لسلطين باشا) .
ثم ذلك المجلد الثمين المسمى « شجرة النسب » ،

بل إنك لو اجد إلى اليوم صور فاتح السودان في شتى مواقفه ،
وملابسه ، وتشريفاته ، في كل غرفة من منازل أحمد عصمت .

هذه الظروف العائلية اتصلت أسباب الأسيرة بالواقعة الأخرى من
مواقع تاريخنا ، فأضحى السودان والاحتلال مجالا حيويًا للخيال ، عند

من كان فيها صاحب خيال ؛ واجتمعت له بحكم مقامه في طريق القناعة وبحكم ميلاده ، أسباب الاتصال الروحي ، والفعلی ، والعائلي ، بشق النزاع في قضيتنا مع الإنجليز .

وبقيت في ضمير الزمان وآجل الأيام ، تهينة البطل الجديد من أبطال هذه الأسرة ، للجهاد والمستقبل .

انقضت حياة عصمت بك في سنة ١٩٢٦ عن خمسمائة فدان ورثها عن أبيه ، محمد بك عصمت ، وسبعين فداناً اشتراها هو في عين شمس . وحدائق حيوانه ؛ وخان الخليلي ؛ والمكتبة ، ودواليب الري والطحين والتقطير ، وغرائب المخلوقات ، وذكريات مجد .

وكان محمد بك عصمت ، من عمال الحديد ، وإسماعيل ، آخره وظائفه وكيل مديرية بني سويف ، شهد النور في بلدة زاوية بلتان ، من أعمال القليوبية أحد أولاد الشيخ حسنين شادي ، وكان شيخاً للمنطقة عند توزيع الزمام بعد موت محمد علي ، فأصاب ثراء عظيماً توارثه بنوه وأحفاده ، تتعالى به في سماء الزمان شجرة نسب ، ذات فروع كثر ، تنتهي إلى قبيلة بني مخزوم في جزيرة العرب ، وتحفظ الأسرة بها في الغالي من مقتنياتها

أنجبت للهندس الشيخ زوجه . وكان نسله منها فتاة ، لكنه كان يهوى البنين ، ويتخير لنطفه ، فأصهر - عندما دنا أجله - إلى أسرة بياض الشهيرة العربية الأصول في الفيوم ، وولدت له زوجته الجديدة بنتاً أخرى ، ثم غلاماً فغلاماً أسماه أحمد ، في ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٢٢ ، لم يحل عليه الحول أربعاً حتى فارقه أبوه في الحياة الدنيا ثم فارقه أخوه .

• • •

نشأ أحمد من حدائمه يتيماً كما ينشأ الأنبياء ، غير مقتر عليه في الرزق

كأبناء الأثرياء . لكنه كان يحس من يثمه كالصاب غضاضة ، فسيطر عليه الحياء إلى جوار الانطواء الذي ورثه .

هو ذا في مدرسة الجزويت (العائلة المقدسة) تلميذ في طليعة أقرانه تحمله سيارته الخاصة اليها ومنها صباح مساء ، حتى إذا أوى إلى داره قضى وقته في غرفات أبيه أو مع الجنانين ، بين أحراش النعام وأقفاص الحيوان وأشجار المانجو وزهور الداليا والزنبق والجلد يولاً معكوفاً عن الناس .

فإذا صور فوق الهرم تبدى لك يرفع رأسه ويدفع صدره وهو حدث ، وإذا رسم بين أقرانه من تلامذة الجزويت وضع ، وحده ، على رأسه طربوشه كأنه العلم المصرى بين الأجانب .



لاعب النش

حتى إذا أتم دراسته فيها حمل الشهادة الابتدائية في نحو الثانية عشرة من عمره مبرزاً بين الدارسين مجيداً للفرنسية حافظاً أسير أشعارها وأذهبها على الألسن من شعر راسين ، وكورنى ، وفكتور هيجو ، ولامارتين ، ومن ثم بسويه ، لكن في دراسة الجزويت تضيقاً ، وفي الفتى نزعة غلابة إلى الحرية ، فلم يكد يحرز الشهادة حتى انطلق بين النقيضين إلى الجامعة

الأمير بكية حيث يعامل التلاميذ أسانذتهم معاملة الزملاء . وإذا الفتى النابه في دراسته الابتدائية ، والذي كان يتألق ذكاءاً والمعية ، قد أخذ يتعثر جده إلا في رياضة التنس ، فصار يشار إليه فيها بالبنان بين الفتيان ، ثم عرف التدخين فصار له عادة لم يفارقها فكانت كبرى هناته ، ولو أنه لم يكن يدخن أكثر من ٢٠ سيجارة في اليوم كما جاء في أوراق القومسيون الطبي في ٣٠ من سبتمبر سنة ١٩٥١ .

وكان يطرق أبواب الثامنة عشرة ومن حقه أن يدير أمواله ، فترك دروس الجامعة إلى دروس الحياة ، وإلى المطالعة في مكتبة أبيه - فقرأ كتبها الهندسية كلها إن لم تكن كلها ، وبعض كتب الطب ، أما كتب التاريخ الاسلامي والفرنسي فالتهمها التهاماً . وكان التاريخ المصري موضوعه المفضل . يحمل كتبه الفرنسية والعربية عند الساقية وتحت تكايب العنب وفي كل مكان .

كانت متاعب الفتى في ذلك العهد فوق مستوى حدث لم يكد يطر شاربه بعد ، لكن الذين شهدوه في هذه الأثناء استبانوا فيه أصالة تعلو على المعلومات والتجارب - فلقد تولى إدارة أشيائه بغرائز عارمة تلتمس النجاح ، وهو بين زراعاته في مصر أو المديرية وبين قضايا موزع ، لكنه مقتدر ، قربت سياراته القوية بين القاهرة وتلك الديار . ويحميه شباب قوى وشمائل ضمنت له حبة الخلطاء وصفاء ود العشاء . إذ كان معطاء لا يكاد يعرف الأخذ . فإذا تعامل عامل متعالياً لا مساوماً ولا مأكساً ، لا يكفيه أن يترك الناس تعيش ، بل كان يهنيه أن يجعل الناس تعيش معه أو من حسابه . يترك قدراً لا يقل عن خمس الإيجار عند تحديد الأجرة لمستأجره في غالب أمره وقد يصل إلى الثلث ، لأن لهم يوتاً تعودت أن تعيش من إجارة أرض آبائه وأجداده . لكنه

يقتضى بعد ذلك حقه كاملاً لا ينقص دائماً ليعود مستأجره الدقة معه .
ولكم كان كبيراً في عاطفته دقيقتاً في حسابه .. !

تحدث بطائفة من الحديث عن واحد من مستأجره فإذا هو قد جامه
في بضع سنوات بسبعة آلاف جنيه ، وكان يستغرق في التفكير ويقول
من حبه له ، ومع ذلك فالشيخ يستحق معونة أكثر ،

ولما مات كان كبار مستأجره أعلى الباكين تشيخاً وكاد أحدهم ، وهو
من أقدم عمد البلاد ، تبيض عيناه من الحزن .

تمرس الشاب بقيادة السيارات منذ الثانية عشرة وتداولت يده بضع
سيارات درس آلاتها ونحى سائقه عن أن يقود له ، وقصره على القيادة
لأسرته في عربة أخرى .

كان يذهب إلى الريف ويعود في جوف الليل وحيداً ، ويخوض
إلى أسفاره غرائب الطرق في الصحراء ، يدفعه شبابه إلى اقتحام
المسكاره والمخاطر وإن كانت قد ظهرت عليه أيامئذ ظاهرة تبدو لغير
الملم بطبعه غريبة ، تلك أنه بعد أن كان يقود سيارته وهو تلميذ بسرعة
خاطفة أخذ يقود باطمئنان واتزان واعتدال . ولم يكن قد عبر حدود
العشرين في هذه الفترة حتى أتقن استعمال الأسلحة بكل أصنافها ، فكان
يخرج للصيد مع زملائه إلى الفيوم حيناً ، وإلى الشرقية حيناً وإلى البركة
غالباً (قريباً من عين شمس)

ويعود من عمله أو رياضته يرتاد حدائقه الواسعة اللقاء وبسطاد ،
وفشا في الناس إتقانه استعمال السلاح فلم يتسلق أسواره ، أو يقتحم داره
على تخوم العاصمة ، غر مغامر من بدو الصحراء .

وفكر في الزواج قبل أن يبلغ التاسعة عشرة . وكان معروفًا بيساره



في الصيد

مرموقا لما فيه من فحولة الرجولة واستقامة الطباع وبساطة السن المبكرة، مما يغري بالاهتمام به والإصرار اليه .

قيل له إن وزيراً من أنسباء الأمراء ، يود لو أصهرت اليه ، فطوى كاشحا يقول : إذا كنت أريد الزواج فسانزوج ، ثم تبسم ضاحكا وقال : إنني أريد أن أتزوج ولا أريد أن أتوظف ، ! وأخذ يبيـن له لزواجه الأسباب ، فلما صار اليه كامل أمره استكرم الأصول من الأسر الشهيرة في جبرته وعشيرته ، فأعرس بحليلته ، وراح يبنى أسرته الخاصة في مزاج من اليسر وخفض الجناح والإقبال على الحياة . وتراعى لعشراته أن الزواج وانتظار الاولاد وإدارة المال ستكون منتهى مناه .

أقبل الفتى على داره الصغيرة يعب من طمأنينته ومن هنائه عبا كأنما دنياه دنيا من الأحلام . يولد له ولد وإثر ولد وبنت ثالثة في السنوات الأولى من زواجه ويتخير لهم المربيات من المانيات ومصريات .

ويحمل هداياه إلى أهله وبنيه في تلك المناسبات والدنيا العريضة أضيق من أن تسعه . وبطيل القعود إلى مربية أولاده ينصحها ويهيجها كما تهيج الجذات .

وهذه عربات صغار وقطر كبار ، وطائرات ومسدسات وسيارات لبنيه ، ثم هذا مسكن أنيق للربية الألمانية ، وهكذا سلخ من حياته أياما كانت متعة لمراقبها وجنة الخلد لصاحبها .

• • •

وما أن رفع عن كاهله عبء الأوصياء ، حتى أدار وجهه إلى قضائاه ، يصنع فيها ما صنع بحداثق أبيه ، التي عقد الإهمال أمرها ويسر هو عسرهما فالوصى من أهله معترف له بآلاف ، والغير من الناس محكوم عليه ببضعة آلاف أخرى ؛ والوصى الأجني في ذمته بضعة آلاف غيرها فيقول : لا أرب لي عندهم ، ولن تذهب نفس حسرات على المال ، فقد عفا الله عما سلف .

قليل له إنك متلاف ... فأمسك هنية ثم انطلق يقول : إلتنى أتهم في المودة بالإتلاف ، والحق أننى لا أترك مالا بل أسباب خلاف ، وأستبقى علاقات الأخوة والبنوة وبعض الراحة ، وابتسم يقول : بالعطاء . تأخذ ، ثم قالها بالانجليزية : Sir by giving we take...By giving we take ، وراح يسأل : ما رأيك في ابتسامة الطفلة فلانة ؟ ألا تساوى ألف جنيه مصرى من الذهب ١١ ، ثم يقول : لعل ذلك أقسط وأعدل ،

واستطرد في نظرية إزالة الخلاف إلى متمها فلم يبالى . في أواخره حزبا على حزب ، أن كان هناك فريق أولاد عبد القادر حلى (باشا) وحفدته ، وفريق هم الأقربون ، فكان هواء مع (جماعة الباشا) يزورهم ويأين لهم ، وبعد أن كان في طفولته لا يراهم ، أضحي في رجولته يقضى أيامه

وأيامهم . فإذا عضتهم الأسن الدرية تافح عنهم واعتلق فضائياهم . بما فيه من قصد وإعسفة .

والتفت إلى حدائقه تخطى فسحات وجهها خطوطاً بارعة من سمات العصر . فزرع وحنع وحوون وبذل وأصلح . فأسفرت كالوجه الملمم بعد إذ أميط عنه لثامه . أو الصفحة المقرومة بعد أن كانت لا تفك خطوطها . وعلى الحق حملت وجه هذا الفتى السمرى القامة الواضح القسما .

والطلق على أثر أبيه ينثر الذهب من جديد . في بضعة وعشرين قدماً من أرض المسكن . يقوم الواحد منها ببضعة آلاف . ثلأها أشجاراً وأسواراً . وأخرج الزرع شطأه معجلاً . واستوى على عوده . فأينعت الصحراء على يديه . وأورق الجبل على أعين الناس وهم

لا يكادون يصدقون . لولا أنهم يشهدونه مسربلاً بسر او يلاته تحت شجيراته . في حمارة الحر أو مصبارة القبر . يندش بيده وكأنما يلثم كل شجرة ويقبل تراب الأرض المصرية التي كان يعبدها .

وكانما كان يحس عليها وطأ أقدام أبيه . وكان يؤرقه التحنان دائماً إلى آباءه .

كان يسكثر الاختلاف إلى خلصائه وأصدقاء أسرته تحت هذه الشجيرات . يناقشهم في



تحت شجيراته

السياسة الدولية والداخلية وهوشات الأحزاب ، مناقشة رجل يقرأ الصحف الإنجليزية والفرنسية والمصرية اليومية والأسبوعية والشهرية ، ويستمع إلى كل محطات العالم ولا يبرح ذاكرته أن أباه كان قرّة العين لخاله عبد القادر حلي ، وصديقاً لمحمد عبده ، وعبد الخالق ثروت ، وأن حمد الباسل وكيل الوفد المصري ، وأحد رؤسائه ، وأحد الذين نفوا مع سعد إلى مائطة سنة ١٩١٨ ، كان زوج خالته ، فتتلاقى في ذاكرته أخلاط من الذكريات عن أصول ومصادر ورجالات لها بها صلوات بذل كل منها جهده في الدفاع عن الوادي ضد عدو واحد مشترك هو الانجليز .

وكانت الحرب العالمية الثانية دائرة الرحي ، فكانت أحداث اليوم تدور حول كرة الأرض ، ومصر ميدان المعارك الحربية وللفساد السياسي ، تصلى نار جهنم من تدخل الانجليز ، وتغيير وزاراتها والاعتداء على سلطاتها . في حين تلوى بطون بني الوطن من الجوع سبع سنوات عجاف كسبع يوسف .

وكانت عين شمس ملتقى الطرق إلى مناطق الجيش المحتل ، ومهرباً لكل من باع سلاحاً من الأسلحة الإنجليزية والألمانية والإيطالية ، وهو أظهر الملاك في عين شمس . يفد إليه عماله وبدو الصحراء القاصون والدانون بالسلاح من كل مألوف ومُهرّب . فينتخير منها ما ينفعه ويصدف عما لا نفع له فيه . فصار حجة في الصيد وفي السلاح وأسعار السلاح وتعليم استعماله . حتى أفرأخه الصغار كان يحاضرونهم فيه ليفهموا ما يحيط بهم وبه ويعيشوا ، كمثلهم ، في جوه . وما أشد ما كان فيه من رائحة سلاح ، وخراطيش ، وأصوات قذائف .

وفي سنة ١٩٤٠ كان في الحادية والعشرين والتس لديه صديق صار

من بعد نائباً عاماً ، أن يشير عليه في شأن من شئون السلاح فأشار عليه وأحضر له . وكان رجال البوابيس المحليون يعلمون خبرته في السلاح . بل اهل بعضهم كانوا يشعرون بأنه في حجرات لديه . ولكنهم كانوا يقدرون مكانته وأمانته فلا يسألونه .

ومن بعد ذلك بأعوام كانت حدائقه ، وحدائق أخرى بإزائها مستودعا لسلاح استعمل أكثره المتطوعون في حملة فلسطين . وكان لتلكته من أمور السلاح يصلح الأسلحة الفاسدة . ويزاوج بين قطعها مزاوجة الخبير . أفضل الأسلحة عنده السلاح الألماني . أما بنادق الطليان فلم يك يأبه لها .

وغلبت عليه طبيعة المهندس التي ورثها . فكان يصلح بيده سياراته وآلات الري الخمس في أرض عين شمس . وتتداول أنامله دقائقها تداول الميكانيكي الثقة . يدرسها على الطبيعة . وفي محال البيع . وفي كتب الهندسة من مكتبة أبيه . ويعلم عماله عليها عملهم . ويراقبهم . فيدهش جيرانه ، كما يدهش أقرانه . بما فتح الله عليه من هندسة تطبيقية .



الباب الثاني

محقق المشروعات الكبيرة



تزخرفت الدنيا وازينت للفتى السعيد ، فترات هذاة نفسه فى قسماٲ ووجهه وبسماٲ فيه ، كدان البلهنية أو الرفاهة لم تعب عن نفسها بأوقع من إشاراٲ يده أو حركاٲ رأسه أو خطراٲ نفسه وانبعاثاٲ وجدانه .

ولما أقبل على أن يبنى لنفسه داراً جديدة ، كان ذلك هو التعبير المنطقى عن نفس قاءرة على الكشير أوفٲ على الغاية ، وكأنا أعطيت مفايح الأرض بالرضا والقناعة ، فلم يبق أمامها إلا أن تبنى إطاراً للبعانى الذى سعدت بها ، فى دار تسع الأسرة الوادة الراضية بما قسم لها ربها .

ولقد طالما يفكر الرجل فى أن يبنى الدار بعد أن يساخ من سنواته الأربعين والخمسين والستين ، وعلى ذلك تستفحل نزعۃ البناء عند الشيوخ وتندر لدى الشباب .

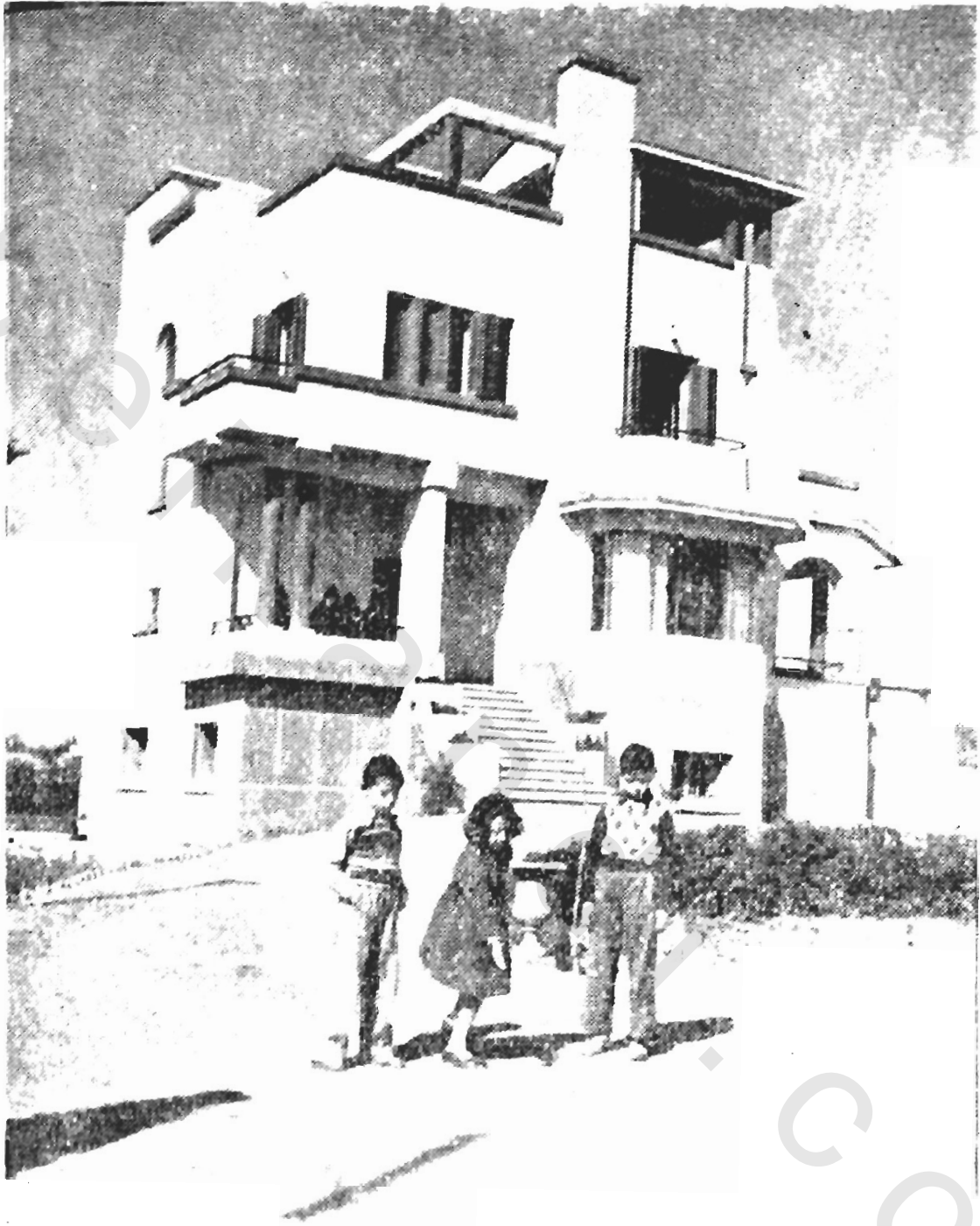
لكن الشاب الذى لم يبلغ الثانية والعشرين ، كان قد بلغ بنفسه مكاناً عليا استقر عنده ؛ فرأى أن يبنى لنفسه دارها ، ولم يجد خلطاؤه فى ذلك عجباً ، لأنهم عليهمون بقدرته على أن يوفر المال لكل مشروع أرادہ ، وإن كان قد شرع فى البناء وليس لديه منه وفر ، فإن عاما واحداً

من الاستقامة ، والمقدرة على التنفيذ ، وتدير شؤنه ، طوع له أن يشيد
تلك الدار .

كان مسلماً أنها ستكونه بضع آلاف . فاقترح عليه أن يقيم صرحها في
أحياء القاهرة حيث يتناطح أولو اليسار بشواهدهم ، كأنما يضربون في
السماء بروقهم ، وزينت له الأسماء والأصقاع فقال : أريد أن أبني في
أرضي ، حيث شهدت النور ، وجرت قدمي وقدم أبي وأهلي من قبل .
كان يضمن بذاته فيستعلي على أن يقتحم عليه أحد خصوص نفسه ،
وفي الوقت ذاته يريد أن يبقى حيث هو ، فلا يوغل في خصوص غيره
منافسا أو مدعيا ، أو لعل ذلك كان بعض انطوائه .

وكما يدل أسلوب الكتابة على الرجل ، وأسلوب العبارة على العصر ،
دل أسلوبه على ذاته . إذ شاد هذه الدار الأنيقة وحاطها بأربعة آلاف
متر حديقة فيحاء . يتضوع منها العطر في كل الأرجاء ، وتتألق عيون
أزهارها الضاحكة في كل ركن ، على جانبيها عشرات الأفدنة من حدائق
الفاكهة له ولذويه . وكأنما تنطق بأن صاحبها لا مطمع له من نعيم حياته ،
إلا أن يحفظ الله له نعمة الاستقلال .

وراح يدخل فيها ما يستطرف من أساليب الحضارة الحديثة ومتاعها
فسكانت في داخلها داراً أمريكية الجمال وفي خارجها مصرية عربية الطراز .
في ذات يوم أخطره أهله أن إحدى شركات السينما أقبلت تصور داره
لتعرض مناظرها في أحد الأفلام ، وكانوا يعلمون عزوفه عن أن يجر
لإزاره في الناس خيلاء . فسألوه أيأذنون للشركة أم يعتذرون ، فأجاب في
سماحته المطبوعة أن يمكنوا المصورين بما طلبوا سواء أكانت الحديقة أو
كانت أبنية الدار على ألا يصوروا أشياء الأسرة الخاصة ... ثم خف
اليهم يقول ما خشي أن يعجز أهله عن الإدلاء به . وظهر البيت في فيلم
المصري أفندي ، تحفة رائعة .



زهرات مفتوح

كان البناء آية النسيجام حياته الداخلية واستقرار حياته الخارجية حقاً،
لكن ما فيه من نزعة التقدم وجهه إلى أن يتعلم الطيران ، ولعل مرد ذلك
إلى أن القعود ليس من طباعه ، أو إلى نزوعه لأن يكون سعيه في السماء .
دخل مدرسة مصر للطيران كما دخلها معه أو من قبله ثلة من الشبان

والأعيان ، تخلفوا عن الدرس واحداً بعد آخر ، لكنه لم يتوقف أو يتخلف يوماً واحداً ، بل كان يذهب في غير الساعات المخصصة له ليتعلم مع غيره فوق الساعات المخصصة له ، في مصابرة ومثابرة يسرتا له البدار في تمام تعليمه .

ولم يكد يحرز شهادة الطيران حرف د ا ، حتى عينته شركة مصر للطيران بين طياريهما بأجر جنهات معدودة .

كانت هذه الجنهات عنده خزائن الأرض من مال قارون ، تذوب نفسه جزلاً إذ تصل إلى راحته ا ومع أن مرتبه في الشهر لم يزد على خمسين جنهات في أيامه الأخيرة ، كانت تكلفه قريباً منها سيارته التي نقله إلى المطار ، غير مرة في النهار ، فقد كان يقبض أجر الطيران على استحباب ولو كلفه الطيران أكثر من ذلك الأجر لأنه كسب يده ، لا كسب جده ولا ميراث والده .

التست د شركة الخطوط العالمية للطيران ، مراقبا المطار لقاء مرتب كانت جملته أربعة أضعاف ذلك المقدار ، وكان من أغراضها أن ينتدب لذلك طيار مصري من طراز خاص فوقع عليه الاختيار ، ولما عرض عليه الأمر طلب من نقل العرض إليه أن لا يبت فيه إلا غداً ، فقال وفيه الإرجاء ؟ إذا كان العمل في أرض المطار فيأني رافضه . إنني أريد الطيران نفسه ولو دفعت مثل ما يمرضون .

ثم اقتضت معاهدات الطيران ألا يطير إلى الخارج على الخطوط الدولية إلا طيارون يحملون شهادة د ب ، في الطيران ، ولم يكن طبعه يحتمل إلا أن يتجهز لعمله بأحسن جهاز وأكمله ، للإتيان الذي كان مفتاح طباعه ، فعلى هذه القاعدة أتقن دراسة الآلات الميكانيكية لما تعلم قيادة السيارات ، وتعددت عنده آلات الرى .

ولما أخذ يخرج للصيد لم تنصرم شهور حتى صار من أمر الرماة .
ولما لعب التنس صار معلما بين فريقه ، ولما زرع الأشجار تزود لزراعتها
بكتب أبيه وبالكاتب الحديثة ، فهو لا يقارب عملا إلا أتقنه ، ولا يرضى
أن يعمل له أحد عملا إلا كل حجة في فنه .

فإذا استعان بطبيب فإن طبيبه مدير الجامعة . وإذا وكل محاميا فإن
وكيله هو د الهلباوى ، النقيب الأول ، أو غيره من النقباء والأساطين ،
وإذا اشترى سيارة ففى د الباكار ، أو د الكريزلى ، أو د الدستو ، ،
لقوتها لا لأمتها ، وإذا اتبس حائكا أو بائعا أو صانعا لم يرض بغير من
بلغ الذروة من تجويد صناعته وإتقانها .

تحلى فى دراسته لشهادة د ب ، فى الطيران بما فى دمه من ميل إلى الهندسة ،
وحبها إليه أنها كانت دراسة الدقة وحسابات الأبعاد ومهاب الريج ،
هندسة خالصة وجبرا وحسابا ولوغريتمات ، فكرس ساعات فراغه لها
وأحال الدور الأول من بيته مدرسة للطيارين ، يحمل إليها الأساتذة
والسلاميد ضيوفا ، وتشترى الكتب من مصر أو إنجلترا ، أو
باريس . وطاوعته اللغات الثلاث التى يتقنها . وكان بنوه يصطفون فى
الاسكندرية ويبقى هو فى القاهرة من أجل دراساته صيفا بعد صيف ،
وإذا سئل عنه فى المسرة رد أبنائه إذا كانوا فى رفقة معلمهم أن أباهم هو
الآخر مع د حضرة معلمه ، ! اويدين له الأمر فيمنح الشهادة فى طليعة
طالبها .

قال الممتحن لزملائه إننى فى حرج إذ أمتنع هذا الفتى هذه الشهادة ، فهو
أصغر الطيارين سنا والشهادة تطوع له الرحلة على الخطوط العالمية عبر
المحيطات ، لكن إجاباته تجعلنى فى حل .. فمنح الشهادة بعد تردد .

أما معلمه فى الطيران الليلي فسيقول يوما والدموع تنهل على خديه :

« لقد خسرت مصر هذا الطيار ولم نخسره شركة مصر وحدها .
ومن المؤكد أن الزمن لن يجود بمثله قبل خمسة عشر عاماً . »

كانت رحلات الطائرة في خارج مصر وداخلها تملأ قلبه حباً لها .
فالطائرة تحلق فوق مصر فتربك وجهها الأصيل كما برأه الله بملاحها الثابتة
على الزمان ... النهر يجري كشریان الحياة في الوادي ، نخلة بأسقة سمراء
تهز رؤوسها الخضراء في الدلتا ، وعلى جانبيه حراس أقامهم أبائنا من
قديم الأزل ، هم المعابد والآهرام والآثار والقصور الخوالد ، تحمل الينا
مشعل الحضارة ونضىء لنا ببقيننا في أظلم عصور الشك في قوتنا . ونقول
للصريين وللغزاة جميعاً : مصر باقية . وتذيب عصاراتهم أو حضاراتهم
في حضارتها . . . وما هي إلا ألوان مصر الأصلية في قيمها العليا ،
وطابعها القومي ، وخصائصها الباقية ، وسماتها الصافية ، ومياهها الزرقاء ،
ورياضها الخضراء ، وصحراء الذهب . لا يلقى الطائر عوجاً ولا أمناً ،
فوق محورها من القاهرة إلى الخرطوم ، إلا أن تكون إحدى أسرها
القديمة قد أخرجت قلبها ، هبة منها للأجيال اللاحقة ، في شكل هرم .

ركب النعراشي معه إلى الأسكندرية ذات يوم وكان يخاف الاغتيال
السيامي ، فلم تكمد الطائرة تحلق في الجو حتى شعر أن الباب قد انفتح ،
فبعث مساعده يحكم رتاجه فانفتح مرة أخرى ، فبعثه أخرى ،
ورجع إليه يقول إن الباشا لا يريد أمامه باباً مغلقاً ، فكلفه أن
يغلق الباب على الباشا . فلم يكمد يفعل حتى انتقل رئيس الوزراء إلى
غرفة القيادة . فلما بلغه قال له في إسماع وخفض جناح « ليت الباشا
يرجع مكانه » قال « وهل ثم ما يمنع أن أكون هنا » قال « إن الأصول
تمنع وفي عودة الباشا طمأنة لزملائه الراكبين » ، وسيطرت ابتسامته
وطهارة قلبه على قلق الرئيس . . فلزم مكانه .

وما صنع أحد إلا ما يصنعه دائماً من التزام الدقة في القيام بعمله مع
الزام غيره نفس الحدود ، ولو كان الخارج عليها رئيس الوزراء .

• • •

حمل الطيار الصغير الأجنحة المصرية في آفاق الخطوط العالمية رفرافة
في أعالي القمم من معاهد الحضارة الحديثة ، فكان أمل شركته وزملائه
ومعقد رجاء الرؤساء . يستعجلون قيامه من « جنيف » ويرفض هو
المخاطرة بالطائرة في أحوال جوية سيئة ، محاججاً بقوله : « إنكم تريدون
اقتصاد الساعات وأنا المسئول عن اقتصاد الأرواح » . والرأي في المفاضلة
معروف ، فلم يكونوا يملكون جواباً .

وإذا أقبل الطيارون بعضهم على بعض يتلاومون ، قلب الأمور
لزميل يستحب أن يوصف بالجرأة ، لأن المجازفة بأرواح الغير ليست
شجاعة ولا براعة ، وإنما قيادة الطائرة عمل هندسي كاستعمال السلاح ، من
أشراطه الاحتياط . والحكم فيه للحساب وحده .

ولقد كانت تكثر الكوارث عالم الطيارين فيندارس مع أترابه
تقاريرها ، ولا يذر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعلم مآلاتها .

من أجل ذلك لم يحدث له حادث واحد في سنوات عشر ! وكان
رؤساؤه يندبونهم للرحلات التي تعلن عن مظهر الشركة في الخارج أو
تحتاج براعة في الهبوط والصعود .

عاد مرة من « صنعاء » اليمن بخنجر ملكي قدمه له « ابن الوزير »
يوم ولي الملك بعد مصرع « الامام يحيى » . فكان يتخذ ذلك الملك القاتل
سخرياً ، ويقول ان في هذا الخنجر رائحة الدم ... ويريك الخنجر
ويقول : أنظر فذلك قطرات دم ... هي ذى قطرات دم . تكاد تتكلم

وفي ذات يوم عبر البحر الأحمر إلى الخرطوم وبينما هو بهم
بالهبوط من سماها خذله الطائرة ، أن خذاتها عجلاتها عند التذلي ، وكان
ذلك عيباً تكشف للشركة في بعض طائراتها من قبل ، تم لها علاجه من
بعد ، وكان قد اتخذ مظهراً خطيراً من نحو أسبوع فوق سماء بيروت .

طافت الرؤى بخياله في سماء الخرطوم فذكر كعادته ربه ، وملك -
كدأبه - إربه ، وأخذ يدرس موقفه في السماء . وتوالت الاتصالات
اللاسلكية بينه ، في سماء السودان المصري ، وبين شركة مصر في مطار
القاهرة ... قال : إن جهاز العجلات تعطل كما سبق في الأحوال
المماثلة وسأحاول إنزاله بضغط السوائل ، واستعمل الزيت المعد لذلك فلم
تهبط العجلتان . وتوالت الموجات في سماء مصر وسودانها . يقول لهم
« نفد الزيت ولم يبق أمامي إلا المساء وسأفرغه من الثلاجة » وسال
الماء إلى جهاز العجلات ، والجهاز لا يستجيب ، حتى فرغ الماء ،
واقتربت الساعة ، فلم ينخلع فؤاده رهباً . بل راح يداعب على الموجات
اللاسلكية الجالسين على كراسيهم في القاهرة بقوله « والآن لم يبق إلا
زجاجات الكوكاكولا » ثم قال ضاحكاً : أحاول الآن بالكوكاكولا
Trying with Coca Cola ، وأمر فصب الزجاجات التي أعدت
ليشربوها .

ونفدت الزجاجات إلا بعضاً ونزلت عجلة واحدة واستعصت
الأخرى ، وهو كعدم نزول العجلتين معا أو أشد ، لأن انقلاب الطائرة
من جرائه على الجانب الآخر مؤكد ، إلا أن تحدث السماء معجزة . وأهل
على الركاب في مظهره الذي كان يتجلى فيه دائماً . وجه باسم يفيض
رجولة ومقدرة تنقل الثقة إلى سامعيه . قال : إني سألجأ مع مساعدتي
إلى التحليق فوق المطار حتى يفرغ الوقود . وعند ذلك سأكون قريباً -



لم يبق إلا الكوكاكولا

حق قريب - من الأرض . وهكذا يكون هبوطنا على عجلة واحدة أمراً لا خطورة فيه . فإذا كان ثمة مخطرة لم تكن إلا تهشماً يسيراً في الجناح . وشرط نجاحنا أن نصنع ذلك جميعاً معاً . فلا تضطربوا فتخلوا بتوازن الطائرة عند النزول ... وحومت الطائرة المصرية في سماء الخرطوم على ارتفاع خفيض ، حتى ينفذ الوقود ، ولا تتعرض للحريق ، وكان بين زملائه واحد قدر له من قبل أن يسهم في حادثة بيروت ، فقال له أحمد : أرأيت القاعدة الجديدة للنزول وهي إفراغ البنزين أقرب ما نكون إلى الأرض ، على غير ما صنعتم في بيروت . فهل تسلمون أنها أقل ضرراً وأكثر فرصاً ؟ قال : بلى ، قال : ومع ذلك نجوتم هناك ، قال : إذن سننجو هنا ،

وأخذ يسيل دعاية كانت تجميه دائماً في المواقف ذات المفارقات . قال زميل بيروت : وكنا هناك في ضيق ونحن هنا في مرح وتلك قاعدة

أخرى ، واستمروا تطلع أعينهم بين الفينة والفينة على المضخات
تتجمع من كل أرجاء الخرطوم ، في انتظار الخريق عند الهبوط ، حتى
دنت ساعة العسرة وهم إلى الثرى أقرب ما يكونون ، ونزلت الطائرة ،
ما شاء الله ، على عجلتها اليسرى . وكأنما سخرت لها الريح تجرى رخاء
حيث تصيب ، فجرت من خفة صدمتها على أرض المطار ، كدمى الأطفال
على قدم واحدة ، لم تتكفأ ولم تتكسر . . . ! وهتفت مصر والسودان
للأبطال الذين كللوا الأعلام المصرية في السودان بالفخار .

ولما هبط أرض مصر ، جرى التحقيق ساعة لم تسكد تنقضى حتى
طلب له المحقق علاوة تقديراً لبراعته .

في هذه الحادثة من حوادث السماء صورة مصغرة لحياة أحمد عصمت
على الأرض . قوة أعصاب ، لاتهاب ، وثقة فيه ، وثقة منه ، وعقل
حسابي ، وبراعة نادرة في التنفيذ ، وقيادة فريق

ولقد كان الله معه دائماً لأنه كان دائماً مع الله . يذكره في الآزفة ،
حيث يولى العقل أو تنحكم النزعات أو يضرب الصبا والفراغ والجدة ،
أو في مباهج الليالي المشرقة في دروما ، وجنيف ، أو العطلات
الطويلة في الريفييرا . . . ذلك الطهر الذي لم يعرف الخمر ، ولم
يقترف الميسر . فلم يدخل الخمر داره ولا أوراق اللعب ، على كثرة
ما دخلها في رفقة الشباب الذين يشربون ويلعبون من زملائه

